الكتاب الأول

كتاب «في الشعر الجاهلي»

أ.د. طه حسين
تحليل وعرض أ.د. محمد شفيع السيد

صدر هذا الكتاب في مارس من عام ١٩٢٦ فأحدث ضجة في الأوساط الثقافية المحافظة في مصر، ما لبثت أن امتدت إلى مجلس النواب والنيابة العامة، وحديث ذلك نرجئه إلى حين.

القضية التي يطرحها الكتاب والتي أثارت تلك الضجة هي إعلان طه حسين إنكاره للكثير من الشعر الجاهلي أو التشكيك في صحة وجوده على الأقل، والدعوة إلى دراسة الموضوع وتمحيصه، والتحقق من ورود ذلك الشعر على ألسنة أصحابه وفقًا لمنهج يراه هو المنهج الصحيح، ورَفَضَ منهج مَنْ يسميهم أنصار القديم الذي يقوم على التسليم بهذا الشعر وقبوله دون تروٍّ أو تدبر، اللهم إلا ترجيح رواية على رواية، عند اختلاف الروايات، أو إيثار ضبط على ضبط، أو الحكم بصواب رأى البصريين وخطأ الكوفيين أو العكس.

أما هو ومن يسميهم أنصار الجديد فإنهم لا يطمئنون إلى صحة ما قاله القدماء عن هذا الشعر الجاهلي في نصوصه وأعلامه، وإنما يتلقون كل هذا بالتحفظ والشك، إعمالا منهم لملكة العقل التي يستطيع بها الإنسان أن يميز الحق من الباطل، والصحيح من الزائف، على حين يهدرها أنصار القديم، ولا يستثمرونها فيما خلقت له، وهو أداء حق العلم على الوجه الصحيح.

لقد انتهى طه حسين بعد دراسة لهذا الشعر وفقًا لمنهجه إلى «أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد

ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين»، ويواصل كلامه فيقول: «وأكاد لا أشك في أن ما بقى من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدًا لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي».

وحرصا منه على توثيق كلامه، وإضفاء صفة المنهجية عليه ذهب إلى أنه يعوِّل في دراسته على منهج الشك الذي دعا إليه الفيلسوف الفرنسي ديكارت في مطلع العصر الحديث، وخلاصته أنه في سبيل البحث عن حقائق الأشياء، على الباحث أن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًا تامًا، وكان لهذا المنهج أثره الذي لا ينكر في مختلف مجالات المعرفة عند الأوروبيين في العصر الحديث، فأسهم في تجديد العلم والفلسفة، وغير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم.

وإعمالًا لهذا المنهج في دراسة الأدب العربي يجب - كما يقول طه حسين - أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية، وما يضاد هذا الدين، يجب ألا نتقيد بشيء، ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح. وعلة هذا التجرد أن إبقاء الباحث في أثناء قيامه ببحثه على الولاء لقوميته ودينه يفقد نتائج بحثه مصداقيتها ؛ إما تأثرًا بحبه لكليهما وتعصبه لهما، وإما تأثرًا ببغضه لما يخالفهما ونفوره منهما.

وينبه طه حسين إلى أن إنكاره للكثرة المطلقة من الشعر الجاهلي لا يعنى إنكار الحياة الجاهلية نفسها، فهو لا ينكر هذه الحياة، وإنما ينكر أن يمثلها هذا الشعر الذي يسمونه الشعر الجاهلي. أما السبيل إلى معرفتها فهو القرآن الكريم، «فالقرآن الكريم - على حد تعبيره- أصدق مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه». كذلك يدعو إلى دراسة حياة الجاهلية في شعر هؤلاء الشعراء الذين

عاصروا النبي وجادلوه، وفي شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده، ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها آباؤهم قبل ظهور الإسلام. بل إنه يدعو إلى دراستها في الشعر الأموي نفسه إيمانًا منه باستمساك الأمة العربية بمبدأ المحافظة في أدبها، وعدم التجديد فيه إلا بمقدار.

بل إن القرآن - في رأى طه حسين - لا يمثل الحياة الدينية وحدها قبل الإسلام وإنما يمثل شيئًا أخر غيرها لا نجده في هذا الشعر الجاهلي، يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدال والخصام، أنفق القرآن في جهادها حظًا عظيمًا.

وكما طعن طه حسين في صحة الشعر الجاهلي من حيث افتقاده لتمثيل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين، طعن فيه كذلك من حيث لغته، فهو لا يمثل لغتهم في العصر الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه. ذلك أن التسليم بصحة هذا الشعر قائم على نظرية آمن بها أنصار القديم ومفادها تقسيم العرب القدماء إلى قسمين: العرب العاربة أو البائدة، والعرب المستعربة أو الباقية، أو عرب قحطانية في اليمن هي الأصل، وأخرى عدنانية في الحجاز هي الأحدث، وأن العدنانية تعلمت العربية عن القحطانية فمحت لغتهم الأولى، وأن هذه العدنانية المستعربة إنما يتصل نسبها بإسماعيل بن إبراهيم، وأن أول من تكلم بالعربية ونسى لغة أبيه هو إسماعيل بن إبراهيم.

يرفض طه حسين هذه النظرية مستندًا إلى ما كان بين لغة حمير أو العرب العاربة، والعرب المستعربة أو العدنانية من خلاف قوى يحول دون القول بوحدتهما، وهي خلال التفت إليه قديمًا أبو عمرو بن العلاء، أحد الرواة اللغويين الثقاة إذ قال: «ما لسان حمير (القحطانية) بلساننا ولا لغتهم بلغتنا». وهذا الاختلاف هو ما أثبته البحث العلمي الحديث إذ وجدت نقوش ونصوص تثبت خلافًا بين اللغة التي يتكلمها أهل الشمال في الحجاز، واللغة التي كانت سائدة في الجنوب، وهو

خلاف في اللفظ وقواعد النحو والتصريف.

والحق أن عبارة أبى عمرو بن العلاء السابقة كما ذكرها طه حسين مختصرة ومحرفة عن أصلها الذي أورده ابن سلام، وهو «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»(١).

والمهم أن طه حسين خلص إلى القول بأن كل من له إلمام بالبحث التاريخي عامة ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة يدرك أن هذه النظرية متكلفة مصطنعة في عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية.

ولما كانت النظرية المشار إليها تتضمن وجود إبراهيم عليه السلام وارتحاله بابنه إسماعيل إلى مكة فإن طه حسين -طبقا لمنهجه- يعلن عدم التزامه بما جاء في القرآن عنها، وما جاء عنها في التوراة كذلك، بل إنه يصف بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة بأنه أسطورة. وهذا هو نص كلامه: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخي، فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها». ويغامر طه حسين مغامرة مستنكرة ومرفوضة حين يقول: «ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبثون فيه المستعمرات»، فبعد ما دار بين الفريقين من منازعات وحروب انتهى الأمر إلى الملاينة والمسالمة، وفي هذه الأثناء اخترعت هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، ولاسيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئًا من

(١) طبقات فحول الشعراء، قراءة محمود شاكر، السفر الأول ص١١.

التشابه غير قليل فأولئك وهؤلاء ساميون.

ومن جهة أخرى لما كانت بلاد العرب تدين بالوثنية حين ظهر الإسلام بها فقد دخل هذا الدين الجديد في حرب عنيفة معها، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى إثبات صلة قوية بينه وبين الديانتين القديمتين ديانة النصارى واليهود، وهى صلة واضحة ثابتة في القرآن والتوراة والأناجيل من حيث اشتراكها جميعًا في الدعوة إلى إله واحد يخضع له الناس جميعًا، لكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن - كما يقول - أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وأهل الكتاب، وهو ما تمثل في قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود.

ويمضى طه حسين في تفصيل فكرته ومحاولة الإقناع بها فيرى أن قريشًا كانت مستعدة «لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع الميلادي، فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمنت لها السيادة في مكة وما حولها، وبسط سلطانها على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية، ومرجع ذلك أمران التجارة من جهة، والدين من جهة أخرى؛ ففي جانب التجارة كانت لها خطوطها التجارية التي تصل ما بينها وبين الشام ومصر واليمن وبلاد الفرس وبلاد الحبشة.

وفي جانب الدين كانت هناك الكعبة التي تجتمع حولها، ويحج إليها العرب المشركون في كل عام من أنحاء شبه الجزيرة، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب نوعًا من السلطان قويًا، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزًا لدين قوى كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى.

فقريش إذن- كما يقول - كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية، ونهضة دينية وثنية، وهى بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد

العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية.

وإذا كان هذا حقًا فمن المعقول جدًا - في رأيه- أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم. ويؤكد طه حسين ما نَوَّه به سلفًا من أن هذه القصة حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام، واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا، ومؤدى ذلك الطعن في صحة النظرية السابقة التي تتحدث عن أطوار التوحد في لغة واحدة بين القبائل العربية في الجنوب والشمال فالصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية في الحجاز، واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة، وقصة «العاربة» و«المستعربة»، وتعلم إسماعيل العربية من جُرهم، كل ذلك في رأى طه حسين حديث أساطير لا خطر له، ولا غناء فيه.

والنتيجة لهذا كله أن هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولا يمكن أن يكون صحيحًا؛ ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الذين يضيفون إليهم شيئًا كثيرًا من الشعر الجاهلي قومًا ينتسبون إلى عرب اليمن، إلى هذه القحطانية العاربة التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن، والتي وصفها أبو عمرو بن العلاء بأنها مختلفة عن اللغة العربية، كما ذكرنا من قبل. ولكننا حين نقرأ الشعر الذي يضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقا قليلًا ولا كثيرًا بينه وبين شعر العدنانية، بل لا نجد فرقًا بين لغة هذا الشعر ولغة القرآن، وما ذاك إلا لأن هؤلاء الشعراء الذين أشاروا إليهم لم يقولوا هذا الشعر وإنما حمل

عليهم حملًا بعد الإسلام.

على أن أمر انتحال الشعر الجاهلي لا يقتصر على الشعر المنسوب إلى شعراء قحطان وإنما يمتد شك طه حسين وإنكاره إلى الشعر المنسوب إلى شعراء القبائل العدنانية أيضا من أمثال ربيعة، وقيس، وتميم، ذلك أن الرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام ويقارب بين اللغات المختلفة، ويزيل كثيرًا من تباين اللهجات في شعر شعرائها، وقبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة، ولكننا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر الجاهلي المنسوب إلى شعراء تلك القبائل.

ويستشهد طه حسين في هذا الصدد بالقرآن الكريم فيقول: إن القرآن الذي تُلِي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش ولهجتها لم يكد يتناوله القرَّاء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته، وتعددت اللهجات فيه وتباينت تباينًا كثيرًا. وهو لا يقصد اختلاف القراءات في حركة البنية أو حركة الإعراب، وإنما هو اختلاف آخر يقبله العقل ويسيغه النقل، وتقتضيه ضرورة اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التي لم تستطع أن تغير حناجرها وألسنتها وشفاهها لتقرأ القرآن، كما كان يتلوه النبي وعشيرته من قريش. فهذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعي اللازم في الشعر، في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام. وإذا كان القرآن قد تأثر بهذا الاختلاف اللهجي بين القبائل، وهو ليس مقيدًا بما يتقيد به الشعر من الأوزان والقوافي، فكيف يسلم الشعر من هذا الاختلاف مع تقيده بوحدة الوزن والقافية.؟

وفي هذه النقطة الخاصة باختلاف لغات القبائل العربية أو تباين لهجاتها يرى طه حسين أن هذا الاختلاف قد خف كثيرًا أو تبدد بعد ظهور الإسلام الذي فرض على العرب جميعًا لغة واحدة هي لغة قريش، فليس غريبًا أن تتقيد هذه القبائل بهذه اللغة الجديدة في شعرها ونثرها وفي أدبها بوجه عام، فلم يكن التميمي أو القيسي

حين يقول الشعر في الإسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتها، إنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها.

على أن لغة قريش قد ظفرت بالسيادة وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبيل الإسلام حين عظم شأن قريش، وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية، لكن هذه السيادة قبيل الإسلام لم تكد تتجاوز الحجاز، فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة، وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبًا إلى جنب. وإذن فنحن إذا استطعنا أن نفسر اتفاق اللغة واللهجة في شعر أولئك الذين عاصروا النبي من أهل الحجاز فلن نستطيع أن نفسره في شعر الذين لم يعاصروه أو لم يحاوروه.

بهذا يضيف طه حسين إلى حجته السابقة في رفض الشعر الجاهلي أو كثرته المطلقة، والتي تتمثل في أن هذا الشعر بعيد عن تمثيل حياة الجاهليين وتصويرها تصويرًا صحيحًا - يضيف حجة أخرى تدعمها، وتدور هذه الحجة حول الجانب الفني أو اللغوي، فهذا الشعر -في رأيه- لا يمثل لغة الجاهليين فقد جاء بلغة موحدة تقريبًا لشعراء قحطان في الجنوب وشعراء عدنان في الشمال، على الرغم مما ثبت من اختلاف لغتي الفصيلين الأساسيين، فضلًا عن اختلاف لغات قبائل عدنان نفسها، ولا تفسير لهذه الوحدة اللغوية التي لم تتحقق إلا بعد ظهور الإسلام إلا أن هذا الشعر موضوع انتحله الناس بعد الإسلام، ونسبوه إلى أولئك الشعراء الجاهليين.

والأسباب التي دعت إلى هذا الانتحال يجملها طه حسين في خمسة:

أولها سبب تمتزج فيه السياسة بالدين، أو يمتزج فيه الدين بالسياسة، ذلك أنه منذ ظهر الإسلام كانت هناك حركة جهاد عنيفة بين النبي وأصحابه من ناحية، وبين قريش وأوليائها من ناحية أخرى، وكان هذا الجهاد في مكة جدليًا خالصًا،

وكان النبي يقوم به وحده بإزاء الكثرة المطلقة من قومه، يجادلهم بالقرآن، ويقارعهم بهذه الآيات المحكمات فيبلغ منهم ويفحمهم، فلما هاجر إلى المدينة أصبح هذا الجهاد دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا، ونشأت عداوة بين مكة والمدينة، ما لبثت أن اصطبغت بالدم يوم انتصر الأنصار في «بدر»، ويوم انتصرت قريش في «أحد»، وما هي إلا أن اشترك الشعر في هذه العداوة مع السيف، فوقف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتجادلون ويتناضلون، يدافع كل فريق عن أحسابه وأنسابه، ويشيد بذكر قومه. ثم كان الموقف دقيقًا فقد كان شعراء الأنصار يدافعون قريشًا عن النبي وأصحابه وهم من قريش، وكان شعراء قريش يهجون مع الأنصار النبي وأصحابه وهم من خلاصة قريش. ويجب أن يكون هذا الهجاء قد بلغ أقصى ما يمكن من الحدة والعنف فإن النبي كان يحرض عليه، ويثبِّت أصحابه ويقدمهم، ويعدهم مثل ما كان يعد المقاتلين من الأجر والمثوبة عند الله، ويتحدث أن جبريل كان يؤيد حسانًا.

كان الهجاء بالشعر إذن سلاحًا يستخدمه الطرفان، وزاد من حدته أحيانًا ما طبع عليه العرب من عصبية تدفعهم إلى الحرص على الثأر للدماء المسفوكة، وجدهم في الدفاع عن الأعراض المنتهكة.

ولعل النبي لو عُمِّر بعد فتح مكة زمنًا طويلًا لاستطاع أن يمحو تلك الضغائن، وأن يُوَجِّه نفوس العرب وجهة أخرى، ولكنه توفى بعد الفتح بقليل، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب حاول بعضهم إثارة الفتنة بين قريش والأنصار فتصدى لها بحزم، وحال دون وقوعها، ونهى عن رواية الشعر الذي تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي.

وبمقتل عمر وانتقال الخلافة إلى عثمان لم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية خاصة. واشتدت عصبية قريش، واشتدت العصبيات

الأخرى بين العرب، وعاد العرب إلى شر مما كانوا فيه في جاهليتهم من التنافس والتفاخر في جميع الأمصار الإسلامية. وكان للعصبية بين قريش والأنصار تأثيرها في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام، وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية.

ولم تقتصر العصبية على أهل مكة والمدينة، ولكنها تجاوزتهم إلى العرب كافة، فتعصبت العدنانية على اليمانية، وتعصبت مضر على بقية عدنان، وتعصبت ربيعة على مُضر، وانقسمت مضر نفسها، كما انقسمت ربيعة، وقل مثل ذلك في اليمن. وكانت كل العصبيات تتشعب وتتفرع وتمتد أطرافها وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التي تحيط بها.

هذه العصبية السياسية بين قبائل العرب كان لها تأثيرها في الشعر، فكل قبيلة تحرص على أن يكون قديمها في الجاهلية خير قديم، وعلى أن يكون مجدها في الجاهلية رفيعًا مؤثلًا بعيد العهد، وقد أرادت الظروف أن يضيع الشعر الجاهلي، لأن العرب لم تكن تكتب شعرها بعد، وإنما كانت ترويه حفظًا، فلما كان ما كان في الإسلام من حروب الردة، ثم الفتوح، ثم الفتن قتل من الرواة والحفاظ خلق كثير، ثم اطمأنت العرب في الأمصار أيام بني أمية وراجعت شعرها، فإذا أكثره قد ضاع وإذا أقله قد بقى، وهى بَعْدُ في حاجة إلى الشعر تقدمه وقودًا لهذه العصبية المضطرمة، فاستكثرت من الشعر، وقالت منه القصائد الطوال وغير الطوال ونحلتها شعراءها القدماء. وقد سبق ابن سلام إلى هذا في كتابه «طبقات فحول الشعراء» ؛ إذ يحدثنا بأن قريشًا كانت أقل العرب شعرًا في الجاهلية، فاضطرها ذلك إلى أن تكون أكثر العرب انتحالًا للشعر في الإسلام، كما نُقِل عن أبى عمرو بن العلاء أنه كان يقول: «ما بقى لكم من شعر الجاهلية إلا أقله ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير».

السبب الثاني العاطفة الدينية، وقد تشكلت فيما يرى طه حسين أشكالًا مختلفة دعت إليها الظروف التي أحاطت بالحياة الدينية للعرب خاصة وللمسلمين عامة، فكان هذا الانتحال في بعض أطواره يقصد به إثبات صحة النبوة وصدق النبي، وكان هذا النوع موجهًا إلى عامة الناس، ويدخل في هذا الضرب كل ما يُروى من هذا الشعر الذي قيل في الجاهلية ممهدًا لبعثة النبي، وكل ما يتصل به من هذه الأخبار والأساطير التي تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم من أحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو من مكة، على نحو ما نرى في سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ.

وضرب آخر من الشعر المنحول بتأثير العاطفة الدينية لم يُضَف إلى الجاهليين من عرب الإنس، وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن، وكأنما كان بإزاء هذه الأمة الإنسية من العرب أمة أخرى من الجن كانت تحيا حياة الأمة الإنسية، وتخضع لما تخضع له من المؤثرات، تحس مثل ما تحس، وتتوقع مثل ما تتوقع، وكانت تقول الشعر وكان شعرها أجود من شعر الإنس.

ونوع ثالث من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش حيث اقتنع المسلمون لأمرٍ مّا – كما يقول طه حسين – بأن النبي يجب أن يكون من سلسلة من الصفوة يفضل كل منها الآخر حتى ينتهي إلى جنس العرب الذي يفضل بقية أجناس البشر، وقد أخذ القصاص يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبي خاصة، فيضيفون إلى عبد الله وعبد المطلب وهاشم وعبد مناف وقُصّ من الأخبار ما يرفع شأنهم ويعلى مكانتهم، ويثبت تفوقهم على قومهم خاصة وعلى العرب عامة، والمعلوم أن طبيعة القصص عند العرب تستتبع الشعر، ولاسيما إذا كانت العامة هي التي تراد بهذا القصص، وهنا تتظاهر العواطف الدينية والعواطف

السياسية على انتحال الشعر.

ومن الشعر المنحول بتأثير الدين أيضًا ذلك الذي لجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوبًا في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم، فالرواة يضيفون إليهم شعرًا كثيرًا دفع ابن سلام في طبقاته إلى الحكم عليه وعلى نظيره مما يضاف إلى تُبَّع وحِمْير، وإلى آدم نفسه في رثاء هابيل حين قتله أخوه قابيل، إلى الحكم عليه، بالوضع والانتحال.

ومن قبيل تأثير الدين في انتحال الشعر الجاهلي ما قام به نفر من العلماء من العرب والموالى من دراسة للقرآن دراسة لغوية لإثبات صحة ألفاظه ومعانيه، وكأنما شعر هؤلاء، وأولئك بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلماته بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها، ومن العسير- في رأى طه حسين - الاطمئنان إلى كل هذا الشعر الذي يستشهد به الرواة والمفسرون على ألفاظ القرآن ومعانيه، ويرى أنه إذا كان هناك نص عربي لا تُقبل لغته شكًا ولا ريبًا، وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية فهو القرآن، وبنصوص القرآن وألفاظه يجب أن نستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلي بدلًا من أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن.

ثمة لون آخر من الشعر الجاهلي المنتحل بتأثير العواطف والمنافع الدينية يتجلى فيما كان يجرى من خلاف وجدل بين العلماء والمسلمين من أبناء الفرق الإسلامية وأصحاب المقالات من المعتزلة والأشاعرة وطوائف المتكلمين، فكل له رأيه في مسألة ما من مسائل العقيدة، ويحاول جاهدًا إثبات صحة رأيه وبطلان رأى مخالفيه؛ لهذا يجد في الشعر المنسوب إلى الجاهليين ملاذًا يعضد رأيه ويسانده. وفي هذا الصدد يقول طه حسين إن «كذب أصحاب العلم على الجاهليين كثير لا سبيل إلى إحصائه

أو استقصائه، فهو ليس مقصورًا على رجال الدين، وأصحاب التأويل والمقالات، ورجال اللغة وأهل الأدب، وإنما هو يجاوزهم إلى غيرهم من الذين قالوا في العلم مهما يكن الموضوع الذي تناولوه».

وقد بلغ تأثير العواطف والمنافع الدينية في انتحال الشعر ونسبته إلى الجاهليين طورًا يَعدُّه طه حسين أعظم الأنواع خطرًا وأبعدها أثرًا، وأشدها عبثًا بعقول القدماء والمحدثين، وهو ذلك الذي ظهر عندما استؤنف الجدال في الدين بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى ولاسيما اليهود والنصارى، بعد أن انتهت الفتوح الإسلامية، واستقر العرب في الأمصار، واتصلت الأسباب بينهم وبين المغلوبين من النصارى وغير النصارى، وقد أخذ هذا الجدال صورة أقرب إلى النضال منها إلى شيء أخر، وذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة.

أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي، وأن خلاصة الدين الإسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء، وهو دين إبراهيم، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله، وكان القرآن قد وقف من أولئك وهؤلاء موقف من ينكر عليهم صحة ما يزعمون، فطعن في صحة ما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، واتهمهم بالتزييف والتغيير، ولم يكن أحد قد احتكر ملة إبراهيم، ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها فقد أخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم الذي هو أقدم وأنقى من دين اليهود والنصارى.

وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون، وانصرفت إلى عبادة الأوثان ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفراد قليلون يظهرون من حين إلى حين، وهؤلاء الأفراد

يتحدثون فنجد من أحاديثهم ما يشبه الإسلام، وما ذاك إلا لأنهم يوصفون بأنهم أتباع إبراهيم، ودين إبراهيم هو الإسلام، وتأويل ذلك من الناحية العلمية - فيما يرى طه حسين - أن أحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم حملًا بعد الإسلام لا لشيء إلا لإثبات أن للإسلام في بلاد العرب قُدْمة وسابقة. وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين، والتي يظهر ما بينها وبين ما في القرآن من الحديث من شبه قوى أو ضعيف.

وفيما يتعلق بغير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى فقد نظروا فإذا لهم في حياة الأمة العربية قبل الإسلام قديم، فاليهود قد استعمروا جزءًا غير قليل من بلاد الحجاز وحولها وعلى طريق الشام، بل إن اليهودية جاوزت الحجاز إلى اليمن، وهذا ظاهر في أخبار العرب وأساطيرهم، وهو ظاهر في القرآن بنوع خاص. وأما النصارى فقد انتشرت ديانتهم انتشارًا قويًا في بعض بلاد العرب، وفيما يلي الشام حيث كان الغسانيون الخاضعون لسلطان الروم، وفيما يلي العراق حيث كان المناذرة الخاضعون لسلطان الفرس، وفي نجران من بلاد اليمن التي كانت على اتصال بالحبش وهم نصارى.

ويخلص طه حسين من ذلك إلى أنه ليس من المعقول أن ينتشر هذان الدينان في البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر في الشعر العربي قبل الإسلام؛ فإذا كانت العصبية العربية حملت العرب على أن ينتحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم في الجاهلية، بعد أن ضاع شعر هذه العشائر، فالأمر كذلك في اليهود والنصارى تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد أيضًا، فانتحلوا كما انتحل غيرهم، ونظموا شعرًا أضافوه إلى السموأل بن عادياء، وإلى

عدى بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى.

السبب الثالث تأثير القصص:

كان لازدهار فن القصص في عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس أثره في وضع قدر كبير من الأشعار ونسبتها إلى الجاهليين. وكثيرا ما كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم، وما يتصل بالنبوات، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السِّير والمغازي إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب، لا إلى حيث يُلزمهم العلم والصدق أن يقفوا، ثم كان أن تنبه الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها واستغلوها استغلالًا شديدًا، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر.

بل إن الأحزاب السياسية على اختلافها تنبهت إلى تأثير القصص في العامة فاصطنعت القصاص ينشرون لها الدعوة في طبقات الشعب على اختلافها، كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها ويذودون عن آرائها وعمالها.

ولم يتأثر القصص بالسياسة وحدها وإنما تأثر بالدين أيضًا، ومن هنا عنى عناية شديدة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور، واجتهد في تفسير هذه الأساطير وإكمال الناقص منها وتوضيح الغامض. ومع تعدد المصادر التي يستقى منها القصاص قصصهم ما بين مصدر عربي كالقرآن وما يتصل به من الأحاديث والروايات، ومصادر يهودية ونصرانية، وفارسية وأخرى مختلطة تمثل نفسية العامة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان ومن إليهم فإنها جميعًا كانت تطلق ألسنة القصاص بما كانوا يتحدثون به إلى سامعيهم في الأمصار.

ويوضح طه حسين تأثير ذلك القصص بمنابعه المختلفة في انتحال الشعر فيقول: «وأنت تعلم أن القصص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفوس سامعيه إذا لم يَزِنه الشعر من حين إلى حين»، ويشير في هذا إلى «ألف ليلة وليلة» وقصة عنترة وما

يشبهها. وهكذا كان القصاص أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ويدعمون بها مواقفهم المختلفة، وهم - كما يقول طه حسين- وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون. وفي تصوره أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النظَّام والمنسقين، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك، وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم، وأذاعوه بين الناس.

ومما يعتقده طه حسين أيضًا أن أكثر الشعر الذي يضاف إلى غير قائل، أو إلى قائل مجهول إنما هو شعر مصنوع موضوع انتُحل بسبب من الأسباب المتصلة بالقصص.

وقد فطن بعض العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلف حينًا، ومن سخف وإسفاف حينًا آخر، وفطن إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين يُنسب إليهم.

ومما يعده طه حسين شعرًا مصنوعًا أو منحولًا تولد بتأثير القصص ما يُروى في أخبار المعمّرين الذين مُدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس، ويشير إلى أن الناس كانوا يتحدثون بذلك ويميلون إليه ميلًا شديدًا، ويروون فيه الأكاذيب والأعاجيب. ويضيف إلى ذلك الشعر الذي يُروى في تضاعيف الأخبار التي يسمونها «أيام العرب»، فالناس سمعوا بعض هذه الأخبار من الأعراب ثم رأوها تقص مفصلة مطولة، فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جد من الأمر، ورووه وفسروه، وفسروا به الشعر، واستخلصوا منه تاريخ العرب، وهو يرى أن هذه الأخبار ليست إلا المظهر القصصي لهذه الحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد أن استقروا في الأمصار، فزادوا فيه ونمَّوه وزينوه بالشعر.

ويعقب طه حسين على كل ما سبق بقوله: ومن هنا نستطيع أن نقول مطمئنين أن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك-إن لم يقف موقف الإنكار الصريح- أمام هذا الذي يضاف إلى الجاهليين، والذي هو في حقيقة الأمر تفسير أو تزيين لقصة من القصص أو توضيح لاسم من الأسماء، أو شرح لمثل من الأمثال.

السبب الرابع: الشعوبية.

والشعوبية فريق من الفرس كانوا في الأصل سبايا للفاتحين العرب، واعتنقوا الإسلام ولم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان هذا الفريق قد استعرب وأتقن العربية، واستوطن الأقطار العربية الخالصة، وأخذ يكون له فيها نسل وذرية، وأخذ هذا الشباب الفارسي الناشئ يتكلم العربية كما يتكلم العرب أنفسهم، وما هي إلا أن أخذ هذا الشباب يحاول نظم الشعر العربي على نحو ما كان ينظمه شعراء العرب، ثم لم يقف أمرهم عند نظم الشعر بل تجاوزوه إلى أن شاركوا العرب في أغراضهم الشعرية السياسية، فكان من هؤلاء الموالى شعراء يتعصبون للأحزاب العربية السياسية ويناضلون عنها.

ولم يكن هؤلاء الموالى مخلصين للعرب حقًا، إنما كانوا يستغلون هذه الخصومة السياسية بين الأحزاب ليعيشوا من جهة، وليخرجوا من حياة الرق أو حياة الولاء إلى حياة تشبه حياة الأحرار والسادة من جهة أخرى، ثم ليشفوا صدورهم من غل، وينفسوا عن أنفسهم ما كانوا يضمرون من ضغينة للعرب من جهة ثالثة. وكانت النتيجة لهذا كله أن استباح هؤلاء الموالى لأنفسهم هجو العرب أولًا، ثم ذكر قديمهم والافتخار بالفرس ثانيًا.

وفي بيان تأثير الشعوبية في انتحال الشعر يشير طه حسين إلى أنه كان يكفى أن يحاول الشاعر من الموالى الافتخار على العرب ليفكر في أن يثبت أن العرب أنفسهم كانوا قبل أن يتيح لهم الإسلام هذا التغلب يعترفون بفضل الفرس وتقدمهم،

ويقولون في ذلك الشعر يتقربون به إليهم، ويبتغون به المثوبة عندهم، ولاسيما إذا كانت الحوادث التاريخية والأساطير تعين على ذلك وتدنى منه.

وإزاء ما كان ينتحله الموالى من الشعر والأخبار يضيفونها إلى العرب ذكرًا لمآثر الفرس، وما كان لهم من سلطان ومجد في الجاهلية كان العرب مضطرين إلى أن يجيبوا بلون من الانتحال يشبه هذا اللون فيه تغليب للعرب على الفرس، وفيه إثبات لأن ملوك الفرس في الجاهلية وتسلطهم على العرب لم يكن من شأنه أن يذل هؤلاء، أو أن يقدم عليهم أولئك. وقصارى القول أن الشعوبية كان تنتحل الشعر بما فيه إزدراءٌ للعرب وغضٌّ منهم، وأن خصوم الشعوبية ينتحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم.

ولعل أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى في نهاية العقد الأول من القرن الثالث الهجري نموذج للشعوبية الصارخة فقد كان أشد الناس بغضًا للعرب وازدراءً لهم. وفي الجانب المقابل نجد الجاحظ ومعه نفر من أمثاله من الأدباء العرب الخُلَّص كانوا يُعنَون بالرد على الشعوبية، ومع ما كانوا عليه من علم لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم من الانتحال الذي كانوا يضطرون إليه اضطرارًا ليسكتوا خصومهم من الشعوبية.

يضيف طه حسين نوعًا آخر من الانتحال دعت إليه الشعوبية، ويعد نتيجة للتنافس في مجال العلم بينها وبين العرب، ويرى ذلك واضحًا في كتاب «الحيوان» للجاحظ وما يشبهه من كتب العلم التي ينحو بها أصحابها نحو الأدب. ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربي القديم لا يخلو، أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة.

ومن هنا لا نكاد تجد شيئًا من هذه الأنواع الحيوانية التي عرض لها الجاحظ في كتاب «الحيوان» إلا وقد قالت العرب فيه شيئًا قليلًا أو كثيرًا، طويلًا أو قصيرًا،

واضحًا أو غامضًا، يجب أن يكون للعرب قول في كل شيء، وسابقة في كل شيء، هم مضطرون إلى ذلك اضطرارًا ليثبتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة، واضطرارهم يشتد ويزداد شدة بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي، وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رأسها.

السبب الخامس: الرواة:

والمقصود بهم الأشخاص الذين قاموا برواية الشعر الجاهلي، ولا يخلو كل منهم من أن يكون من العرب فهو متأثر بما كان يتأثر به العرب من الظروف التي عرضنا لها، أو يكون من الفرس فهو متأثر بما كان يتأثر به الفرس من تلك الأسباب التي أسلفنا الحديث عنها.

لكن على مستوى أكثر تحديدًا يتوقف طه حسين أمام شخصين من الرواة، أحدهما حَمَّاد الراوية، وكان زعيم أهل الكوفة في الرواية والحفظ، والآخر خلف الأحمر، وكان زعيم أهل البصرة في الرواية والحفظ أيضا، وكلا الرجلين - فيما يذكر طه حسين -ليس له حظ من دين ولا خلق ولا احتشام، بل سكير فاسق، وصاحب عبث ومجون، وكذلك كان أصدقاؤهما فليس منهم إلا من اتُّهم في دينه ورُمى بالزندقة. يتفق على ذلك الناس جميعًا. لا يصفهم أحد بخير ولا يزعم لهم أحد صلاحًا في دين أو دنيا.

وأهل الكوفة والبصرة مجمعون على تجريح الرجلين في دينهما وخلقهما ومروءتهما. وهم مجمعون على أنهما لم يكونا يحفظان الشعر ويحسنان روايته ليس غير، وإنما كانا شاعرين مجيدين يصلان من التقليد والمهارة فيه إلى حيث لا يستطيع أحد أن يميز بين ما يرويان وما ينتحلان.

وهناك راوية كوفي لم يكن أقل حظًا من صاحبيه هذين في الكذب والانتحال. وهو أبو عمرو الشيباني الذي اشتهر بجمع شعر القبائل، ويقولون إنه جمع شعر

سبعين قبيلة، ويقول عنه خصومه إنه كان ثقة لولا إسرافه في شرب الخمر، وأكبر الظن أنه كان يأجُر نفسه للقبائل، يجمع لكل واحدة منها شعرًا يضيفه إلى شعرائها.

والنتيجة التي يصل إليها طه حسين إنه إذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبى عمرو الشيباني، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال، ككسب المال، والتقرب إلى الأشراف والأمراء، والظهور على الخصوم والمنافسين، ونكاية العرب، إذا حدث كل هذا كان داعيا إلى الشك فيما ينقلون إلينا من أشعار.

والغريب أن بعضًا من الرواة لم تفسد مروءتهم ولم يعرفوا بفسق ولا مجون ولا شعوبية ومع ذلك كذبوا وانتحلوا، على نحو ما يذكره أبو عمرو بن العلاء من أنه وضع بيتًا من الشعر على لسان الأعشى، وكذلك اعترف الأصمعي بما يشبه ذلك ولكن ليس على الأعشى.

وطائفة أخرى من الرواة يسلكهم طه حسين في عداد الذي أسهموا في الانتحال، وهم أولئك الذين اتخذوا الانتحال في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب، وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث، والمقصود بهم الأعراب الذين كان يرتحل إليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر الغريب، فكل من يعرف أخلاق الأعراب يدرك أن هؤلاء الناس حين رأوا إلحاح أهل الأمصار عليهم في طلب الشعر والغريب، وعنايتهم بما كانوا يلقون إليهم منهما قدروا بضاعتهم واستكثروا منها، ثم لم يلبثوا أن أحسوا ازدياد حرص الأمصار على هذه البضاعة فجدوا في تجارتهم، وأبوا أن يظلوا في باديتهم ينتظرون رواة الأمصار، وإنما انحدروا إلى الأمصار في العراق خاصة، وكثر ازدحام الرواة حولهم، فنفقت بضاعتهم، والمعلوم أن نَفاق البضاعة أدعى إلى الإنتاج، فأخذ هؤلاء الأعراب يكذبون، وأسرفوا في الكذب، حتى أحس الرواة أنفسهم ذلك.

في الفصل الثالث والأخير من الكتاب قام طه حسين بدراسة الشعر الذي ينسب إلى عشرة من شعراء الجاهلية، وقد تناولهم في أربع مجموعات: المجموعة الأولى امرؤ القيس، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة الفحل، المجموعة الثانية عمرو بن قميئة، ومهلهل، وجليلة بنت مرة. المجموعة الثالثة وتضم شاعرين اثنين فحسب، هما عمرو بن كلثوم، والحارث بن حِلِّزة، والمجموعة الرابعة وتضم شاعرين اثنين كذلك هما طرفة بن العبد، والمتلمس.

ودراسة شعر هؤلاء الشعراء إنما هي من قبيل تناولها في ضوء معايير الانتحال وأسبابه التي تحدث عنها في الفصلين السابقين.

وبعد العرض المجمل الذي قدمناه لموضوع الكتاب، وبغض النظر عن مدى ما يتسم به رأى طه حسين من قوة في بعض المواضع، وضعف في مواضع أخرى لا يتسع الحديث عنها تفصيلًا فإن من الحق أن نقرر أنه لم يكن أول من طعن في صحة الشعر الجاهلي، فقد جرى ذلك من قبل على ألسنة بعض النقاد العرب منذ القرن الثاني للهجرة، في مقدمتهم ابن سلام الجمحي (١٣٤-٢٣١هـ) في كتابه «طبقات فحول الشعراء» الذي أشرنا إليه من قبل، ورجع إليه طه حسين واستشهد بنصوص منه في مواضع متعددة من كتابه كما سبق.

وعلى أيدي عدد من المستشرقين الأوربيين من ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ظهر الموضوع مرة أخرى منذ عام ١٨٦١. فقد كتب هؤلاء المستشرقون أبحاثًا حول الشعر الجاهلي بعناوين مختلفة، جمعها الدكتور عبد الرحمن بدوى، في كتاب واحد نشرته «دار العلم للملايين» سنة ١٩٧٩ بعنوان: «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي».

ومن بين هذه البحوث بحث المستشرق الإنجليزي صامويل ديفيد مرجليوث الذي نشره بعنوان: «نشأة الشعر العربي» أو «أصول الشعر العربي» في عدد

يوليو١٩٢٥ من «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية». والواقع أن هذا البحث يمثل خلاصة ما انتهى إليه فكر مرجليوث في أمر الشعر الجاهلي، فقد سبق له أن تحدث عن وضع هذا الشعر في مادة «محمد» من دائرة معارف الدين والأخلاق، وفي كتابه عن «محمد وظهور الإسلام» المطبوع سنة ١٩٠٥ ونشر بحثًا مستقلًا عن الشعر الجاهلي في عدد من أعداد المجلة السابقة نفسها عام ١٩١٦ وأخيرًا كان البحث الذي نشير إليه، وفيه يعيد مرجليوث طعنه في صحة الشعر الجاهلي، واستغل في ذلك نتائج النقوش الحميرية والعربية الجنوبية، وركز خصوصًا على الدوافع الدينية في انتحال الشعر الجاهلي، والتغيير في روايته زيادة أو نقصًا أو تحريفًا، وهذه الأفكار نفسها ترددت في كلام طه حسين الذي أشرنا إليه من قبل، ودلالة ذلك، فيما نرى، وسبق أن ذهب إليه كثير من الباحثين، أن طه حسين تأثر بكلام مرجليوث، أو أخذ عنه كثيرًا مما ادعاه، على ما في كلام الأخير من سوء فهم وتزييف للحقائق.

لقد قلت في صدر كلامي :إن الكتاب أحدث ضجة في الأوساط الثقافية المحافظة في مصر، فكان رد الفعل عنيفًا من جانب شيوخ الأزهر، فكتبوا إلى مدير الجامعة يطالبون بمصادرة الكتاب ومحاكمة مؤلفه، وبعد أيام قلائل اجتمع مجلس الجامعة لمناقشة الموضوع، وفُوِّض المدير لاتخاذ ما يلزم في هذا الشأن.

وفي ٢٧ من مايو ١٩٢٧ عرض طه حسين أن يسلم للجامعة باقي نسخ الكتاب لتفعل بها ما تشاء، وقد تسلمت الجامعة منه النسخ فعلًا، واشترت أربعًا وثلاثين نسخة كانت باقية لدى مطبعة الهلال، ووُضع الجميع في صناديق ختمت بالشمع الأحمر، وحُفظت في مخازن الجامعة، ولم يكف هذا الإجراء لتهدئة ثائرة الأزهر، فما لبث أن أرسل شيخ الجامع الأزهر- كما كان يسمى في ذلك الوقت - خطابًا إلى النائب العام أرفق به تقريرًا رفعه علماء الأزهر عن الكتاب ذكروا فيه أن مؤلفه طه حسين كذب فيه القرآن صراحة، وطعن فيه على النبي ﷺ وعلى نسبه الشريف.

وامتدت الحملة إلى مجلس النواب فأثير الموضوع في ساحته، وتقدم أحد أعضائه ببلاغ إلى النائب العام ذكر فيه أن طه حسين نشر، ووزع، وعرض للبيع في المحافل والمحلات العمومية كتابا أسماه «في الشعر الجاهلي» طعن وتعدى فيه على الدين الإسلامي- وهو دين الدولة- بعبارات صريحة واردة في الكتاب.

ولما كان طه حسين في أوروبا في ذلك الوقت فقد أُرجئ التحقيق لحين عودته إلى أرض الوطن. وتم التحقيق، وجاء في تقرير رئيس النيابة بعد عرض مستفيض للموضوع أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين، بل إن العبارات الماسة بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه إنما قد أوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها. وحيث إنه مع ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر، وبناء على ذلك جاء حكم رئيس محكمة مصر (محمد نور) بأن تحفظ الأوراق إداريًا، وكان ذلك في مارس ١٩٢٧. ومع أن طه حسين سارع في العام نفسه إلى استبعاد الفقرات التي أثارت ثائرة رجال الأزهر وغيرهم، وغيَّر عنوان الكتاب فجعله «في الأدب الجاهلي» فإن أقلام المعارضين راحت ترد على الرجل، وتهاجمه بشدة وتفند ما في الكتابين بالحجج والأسانيد، ومن أبرز الكتب التي ظهرت في هذا الصدد:

١- النقد التحليلي لكتاب «في الأدب الجاهلي» لمحمد أحمد الغمراوي.

٢- نقد كتاب «في الشعر الجاهلي» لمحمد فريد وجدي

٣- نقض كتاب «في الشعر الجاهلي» للشيخ محمد الخضر حسين (تولى مشيخة الأزهر في الخمسينيات من القرن العشرين).

٤- «الشهاب الراشد» لمحمد لطفي جمعة.

٥- «تحت راية القرآن» لمصطفى صادق الرافعي.

وعلى الرغم من أن القضاء قد برأ ساحة طه حسين من التهم التي وجهت إليه، كما أسلفنا فإن لعنة الكتاب ظلت تلاحقه، فأثيرت القضية مرة أخرى في مجلس النواب في الثامن والعشرين من مارس ١٩٣٢ وكان الهجوم عنيفًا وشخصيًا هذه المرة من قبل أحد الأعضاء، وانتهى الأمر إلى إحالة طه حسين إلى التقاعد في اليوم التالي للمناقشة وهو اليوم التاسع والعشرون من مارس ١٩٣٢.

لكن يبقى بعد ذلك أن هذا الكتاب بما أثار من ضجة قد أسهم في ذيوع اسم طه حسين، وشهرته في مجال دراسة الأدب العربي في الجامعات العربية ودوائر الاستشراق في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

*****

openkan.com